الفصل الثانى

صناعة التاريخ
بين دور الأبطال ودور الشعوب

تمهيد :

لعل من أهم القضايا التى عالجها فلاسفة التاريخ تلك القضية التى يثيرها التساؤل عن من يصنع التاريخ؟!

ولعل أحدنا يسرع فيقول : وماذا فى هذا التساؤل؟ إن الإنسان هو الذى يصنع تاريخه، وبالطبع فإن من أثاروا السؤال يعون جيدا هذه الإجابة، فمن المسلم به ومن المعروف أن التاريخ الإنسانى صناعة إنسانية فى كافة مظاهره وأحداثه.

لكن السؤال هنا يعني: من له الدور الأهم والأعظم فى صناعة هذا التاريخ: هل الأفراد وخاصة العظماء منهم أى الزعماء والقادة العسكريون الأفذاذ الذين امتلكوا القوة والقدرة

obeikandl.com

على تغيير مجرى الأحداث فى عصورهم؟

أم أن الشعوب عامة هى التى تصنع تاريخها بما يقدمه كل فرد فيها فى إطار دوره المرسوم وفى إطار وظيفته التى يؤديها سواء أكان طبيبا أو مهندسا أو حتى مزارعا أو خفيرا؟!

من يصنع التاريخ؟. هل إنجازات الكتلة البشرية لأية أمة مجتمعة أم إنجازات الأفراد العظام فيها؟ ومن هؤلاء العظام الذين يصنعون التاريخ؟ هل هم الزعماء السياسيون أو القادة العسكريون أم العلماء والمفكرون؟!

اختلفت إجابات المؤرخين أو الفلاسفة حول هذه التساؤلات وخاصة بعدما بالغ البعض فى دور الفرد البطل فى صناعة التاريخ، وانقسم المؤرخون والفلاسفة فريقين، ففريق يقدر دور البطل ويعتبره فارس التاريخ والقادر وحده على تغيير مساره، وفريق يرى العكس؛ أنه ينبغى التركيز على فهم دور الشعب بكافة طوائفه ومهنييه فهم صانعو التاريخ الحقيقى لأمتهم.

أولا : البطل صانع التاريخ:

(أ) كارلايل ونظرية البطولة:

كتب توماس كارلايل فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر كتابه الشهير «الأبطال وعبادة البطولة» وقدم فيه هذه

الرؤية التى ترى أن البطل هو الذى يصنع تاريخ أمته وأكد على «أن التاريخ العام وتاريخ ما أحدثه الإنسان فى هذا العالم - إنما هو تاريخ من ظهر فى الدنيا من العظماء ، فهم الأئمة وهم المكيفون للأمور وهم الأسوة والقدوة وهم المبدعون لكل ما وفق إليه أهل الدنيا، وأن كل ما بلغه العالم وكل ما تراه قائما فى هذا الوجود كاملا متقنا فاعلم أنه نتيجة أفكار هؤلاء العظماء الذين اصطفاهم الله وأرسلهم إلى الناس ليؤدى كل ما ناطته به القدرة الإلهية من الخير ، فروح تاريخ العالم إنما هو تاريخ أولئك الفحول[1] .

لقد اعتبر كارلايل أن التاريخ الإنسانى إنما هو تاريخ هؤلاء العظماء، وأن تاريخ هؤلاء الأبطال إنما هو «مخ تاريخ البشر وصميم لبابه» على حد تعبير الترجمة العربية[2].

وإذا ما دققنا النظر فى النص السابق لكارلايل سنجد أنه يرى أن البطولة فى التاريخ تكتسب أهميتها من عدة زوايا، أولها : أن هؤلاء الأبطال هم صانعو تاريخ البشرية وثانيها: أنهم يتحلون فى أعمالهم العظيمة بالدقة والإتقان والشجاعة وثالثها: أنهم مرسلون من قبل الله وأن العناية الإلهية هى التى تصطفيهم، وهى التى ترسلهم ليقوموا بأعمالهم العظيمة فى التاريخ البشرى. ورابعها: أنهم - لكل ما سبق - يمثلون القدوة

بالنسبة لكل البشر الآخرين؛ ومن ثم كانت نظرة الناس لهم نظرتهم للقديسين والمصلحين وخامسها: أنهم - حسب اعتقاده- يمثلون جوهر التاريخ الإنسانى باعتبارهم عقل هذا التاريخ المفكر وصانع أحداثه.

والحقيقة أن نظرية كارلايل عن البطولة قد وسعت من مفهومها التقليدى لدى المؤرخين التقليديين الذين كانوا عادة ولا يزالون يركزون على البطولة بمفهومها السياسى أو العسكرى إذ إننا عادة ما نقرأ للمؤرخين عن إنجازات الزعماء السياسيين باعتبارها الإنجازات الكبرى التى لم ولن يستطيع أن يفعلها غيرهم وأنهم بأفعالهم السياسية هذه أشبه بالملهمين وأن كل ما قاموا به هو الأفضل وهو بوابة التقدم والارتقاء لشعوبهم.. إلخ وكذلك الحال حينما يؤرخون لبطولات القادة العسكريين، فهم عادة ما ينظرون إلى كل انتصار حققه هذا القائد العسكرى أوذاك ممن يؤرخون لهم على أنه انتصار الأفذاذ، وعادة ما يرجعون هذه الانتصارات إلى التوجيهات الملهمة لهؤلاء القادة والتعليمات والتخطيط المحكم الذى أبدعوه وبفضله تحققت الانتصارات وألحقت الهزائم بالأعداء!!.

لقد وسع كارلايل من هذا المفهوم الضيق للبطولة وقصرها على المجالين السياسى والعسكرى حينما عدد فى كتابه السابق الإشارة إليه فى ستة صور للبطولة: البطل كإله، البطل كنبى،

(وقد اختار هنا النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث عدد ببراعة أسباب اختياره من بين الأنبياء الآخرين)، البطل كشاعر (دانتى، وشكسبير) البطل كقسيس (لوثر ونوكس) البطل ككاتب (جونسون وروسو) وأخيرا البطل كزعيم سياسى أو كملك أو كقائد عسكرى(كرمويل ونابليون).

وهكذا فقد نجح كارلايل فى توسيع دائرة البطولة بحيث لم تعد مقصورة على بطولة الملوك أو الزعماء السياسيين ولا القادة العسكريين، وبهذا فقد اقترب كارلايل من دائرة وجهة النظر المقابلة التى ترى أن الإنجازات الحضارية للشعوب ككل هى صانعة التاريخ ، لكن المشكلة الحقيقية التى واجهت نظريته أنها جاءت فى وقت بدأت فيه أوروبا ترسخ مبادئ الديمقراطية السياسية وتؤمن بضرورة تداول السلطة السياسية وبالدور المهم الذى يلعبه كل فرد فى المجتمع وليس فقط الزعامات السياسية أو القيادات العسكرية ومن ثم واجهت هذه النظرية انتقادات حادة وكثيرة

(ب) سدنى هوك ينتقد نظرية كارلايل:

وقد جاءت معظم هذه الانتقادات من الظروف المأساوية التى ربما عانتها أوروبا من فعل أحد أو بعض رجالاتها مثل هتلر وموسولينى، وكان أبرز نقاد هذه النظرية هو كارلايل سدنى

obeikandl.com

هوك فى كتابه «البطل فى التاريخ».

وقد أكد هوك فى البداية على حقيقة دور الزعامة والبطولة فى التاريخ على أساس أنه لا يمكن بأى حال الاستغناء عن الزعامة فى كل حياة اجتماعية وفى كل شكل أساسى من أشكال التنظيم الاجتماعى، فضلا عن أن هناك نزعة طبيعية عند الجميع للربط بين الزعيم وبين النتائج المحققة فى ظل زعامته حتى إذا كانت تلك النتائج قد حدثت على الرغم من زعامته أكثر من كونها قد حدثت بفضلها[٤].

وقد أرجع هوك ذلك الإيمان بأهمية البطل فى التاريخ وسيادة هذا الاعتقاد فى العصر الحديث إلى أسباب عدة منها:

١- التقدم العلمى فى أسباب المواصلات مشفوعا بالتقدم الذى رافقه فى الدراسات النفسية الحديثة لابتداع الإيحاء والإيمان به، لقد ساعد هذا التقدم فى وسائل المواصلات وفى الدراسات النفسية الإيحائية على خلق حماسة وعبادة للزعماء عند الجماهير تجاوزت كل مثيل لها فى العصور السابقة.

٢- السيطرة الكاملة لهؤلاء الزعماء على ميكروفونات الإذاعة ولم يكن بعد قد اخترع التليفزيون الذى ساهم أكثر من الإذاعة فى ذلك، وعلى المطابع؛ فقد جعلت الكلمة المسموعة والكلمة المقروءة ومديح أصحابها الدائم إلى التهليل الشعبى بأهمية

obeikandl.com

الزعيم وصناعة زعامته بين عشية وضحاها. إن وسائل الإعلام هى التى تصنع هذه الزعامات، فعلى حد تعبير هوك «منذ اللحظة التى يصل فيها الزعيم إلى الحكم تطبل أجهزة الدعاية وتزمر لجهوده باعتباره السبب المباشر فى كل الإنجازات الوضعية فإذا ما أخصبت المواسم فإن الفضل فى ذلك ينسب إليه أكثر مما ينسب إلى عوامل الطقس، وبالمثل فإن الحالة التاريخية التى سبقت مجيئه للحكم تقدم للجمهور ليس كنتيجة لأسباب اجتماعية واقتصادية وإنما كنتيجة لمؤامرة وخيانة حاك خيوطها الأشرار»(٥).

٣- وربما يكون من هذه الأسباب أيضا عند هوك أن الناس عادة ما يتطلعون فى عصور الأزمات السياسية والاجتماعية إلى من ينقذهم، فحينما يتطلب الأمر فعل شىء سريع يتزايد اهتمام الناس بالبطل ومهما كانت ألوانهم السياسية أو انتماءاتهم الحزبية فإن الأمل فى حل الأزمة مرتبط ومقترن بالأمل فى ظهور زعامة قوية قادرة على معالجة المصاعب والأخطار ، وكلما اشتدت الأزمة حدة اشتد طلب الناس لهذا الرجل المنقذ أو لذلك الفارس القادم على ظهر جواده أو لذلك النبى أو المصلح الاجتماعى أو ذلك الثورى العالم وفق المفردات التى يتنادى بها الناس فى هذا الحزب أو ذاك(٦).

وبالطبع فإنه أولئك الذين يؤمنون بالجبرية الاجتماعية أو بالحتمية التاريخية من جميع الجبهات لا يستطيعون كتابة التاريخ دون أن يعترفوا ويقروا - على حد تعبير هوك - بأن بعض الأفراد فى بعض اللحظات الحرجة يلعبون دورا حاسما فى إعادة توجيه الموجة التاريخية، وذلك على الرغم من أنهم يؤمنون - كما يضيف هوك - فى أحكامهم النظرية بأن كل فرد مهما كان مقامه ليس إلا قشة تطفو على وجه الموجة التاريخية(٧).

وقد انتقد هوك هؤلاء الجبريين المؤمنين بالحتمية التاريخية فى تناقضاتهم الفاضحة بين الإيمان النظرى وبين ما يردده بعضهم عن بعض، فبالرغم من كلامهم عن الممنوح الذى لا مناص منه فإنهم لايذعنون لهذا المحتوم عندما لا يكون على هواهم(٨) كما انتقدهم فى نظرتهم التأويلية لضرورة وجود الزعيم ليلعب الدور الحاسم والفاعل فى التاريخ إبان الأزمات الحرجة التى تمر بها شعوبهم بقوله إنه لم تقم أية فترة لم يعتبرها بعض معاصريها بأنها حرجة(٩). إن التاريخ لأى شعب، ولأية أمة إنما هو سلسلة من الأزمات المتعاقبة وإذا ما فتح المجال للقول بأن الزعيم ضرورى وحتمى لحل الأزمة وأنه بدونه لن تحل فسيكون كل ما مر على الناس من حكام يعدون فى

عداد الزعماء أو الأبطال!.

فضلا عن أنه إذا كانت صناعة الزعامة مترتبة على أنه هو القادر على حل الأزمة فإنه سرعان ما يمكن لأى حاكم أو لأى قائد أن يصور لشعبه عن طريق أجهزة دعاية أنهم يعيشون عصرا متأزما وأن هذه الأزمات سواء أكانت اقتصادية أو اجتماعية إنما تحتاج لشجاعته وتحتاج لقدراته الفذة على تجاوزها ومن ثم تظل عيون الناس وعقولهم مترقبة لأفعال هذا الزعيم الملهم؛ وماهو كذلك لأن كل عصر وفى كل الأوقات ستجد أن الناس تعيش الأزمات وربما يكون هؤلاء الزعماء أو من صوروا أنفسهم هكذا هم أسباب هذه الأزمات وليسوا أدوات حلها أو التغلب عليها أو تجاوزها.

إن البطل الحقيقى فى التاريخ - فيما يرى هوك - هو الفرد الذى نستطيع أن ننسب إليه - ولدينا المبررات الكامنة لذلك - نفوذا طاغيا مؤثرا فى تقرير حدث ما ربما اختلفت عواقبه اختلافا عميقا عما هى عليه لو أنه لم يتصرف فيه بالشكل الذى تصرف به[١٠] وفى تلك المقولة السابقة أعطانا سدنى هوك معيارا جيدا للحكم على فعل البطل فى التاريخ فإن كان هذا الفعل فعلا أصيلا وبطوليا حقا ستكون نتائجه مختلفة عما كانت ستسير إليه الأمور لو تركت دون هذا الفعل من ذلك الفرد

البطل!. إن الرجل الذى تحفل حياته بالأحداث التاريخية هو أى رجل أثرت أفعاله على التطورات التالية لها بشكل مغاير تماما للشكل الذى كانت ستأخذه لو لم تصدر تلك الأفعال عن ذلك الرجل. إن الرجل الصانع للأحداث تكون أفعاله هى نتائج طاقات وملكات ذكاء حادة وإرادة قوية وشخصية بارزة أكثر مما هى نتائج حوادث عارضة ناجمة عن مركزه(١١).

(جـ) موقف هيجل من نظرية البطولة :

أما هيجل فقد قدم لنا رؤية شاملة عن الدور الحقيقى لأبطال التاريخ فى ضوء نظريته الخاصة فى تفسير التاريخ، إن أبطال التاريخ – فى رأيه – هم أولئك الذين تتوافق غاياتهم الخاصة وأفعالهم البطولية مع إرادة روح العالم، فهم يسمون أبطالا بمقدار ما يستمدون أغراضهم ودورهم لا من مجرى الأحداث الهادئ والمنظم الذى يباركه النظام القائم وإنما من منبع خفى لم يبلغ بعد مرحلة الظهور أو الوجود الحاضر من تلك الروح الداخلية التى لا تزال مخفية تحت السطح تضغط على العالم الخارجى وكأنها تضغط على قشرة خارجية وتمزقه إربا لأنها نواة أخرى غير تلك النواة الموجودة فى هذه القشرة(١٢).

إن هيجل إذن يقر بالدور الفاعل للبطولة فى التاريخ،

obeikandi.com

فالأبطال هم من يقومون بتمويل الإمكانات الكامنة فى الأحداث التاريخية إلى واقع عملى، إنهم إذن لم يخلقوا الأحداث خلقا وإنما تفاعلوا مع الخفى الذى تريده روح العصر الذى يعيشونه وأظهروه، أو بالأحرى سارعوا بإظهاره. إن فعلهم إذن ليس عكس منطق الأحداث التاريخية وليس تحويلا لها أو تمردا عليها، وإنما هو الفعل الموافق للإرادة الكلية للتاريخ وإن كانوا قد ركزوا جهودهم فى الإسراع بتحقق هذه الإرادة.

ولذلك فإن رجالات التاريخ أو أبطال عصر ما ـ على حد تعبير هيجل ـ لا بد أن يعدوا حكماء عصرهم ولا بد من النظر إلى أعمالهم وإلى كلماتهم على أنها خير ما عمل وأفضل ما قيل فى العصر... إنهم رجال عظماء لأنهم أرادوا وأنجزوا شيئا عظيما لا مجرد خيال أو مجرد نية بل شيئا ضروريا لبى متطلبات العصر[١٣].

إن هيجل إذن يقدر دور الأبطال والرجال العظام فى التاريخ ويهاجم أولئك الذين يقللون من شأن دورهم فى التاريخ ويتهمونهم بأنهم لا يعملون مايعملون إلا مدفوعين بالرغبة فى الشهرة والمجد؛ وهم فى سعيهم إلى تحقيق هذا المجد وتلك الشهرة إنما يرتكبون أفعالا لا أخلاقية. إن هيجل يرى أن علماء النفس والمؤرخين الذين يهاجمون الأبطال بالشذوذ وبارتكاب

الأفعال اللاأخلاقية فاتهم أن هذه الأفعال سمة مشتركة بين البشر جميعا ولا ينبغي أن نركز عليها على أنها أفعال لهؤلاء الرجال العظام وحدهم، فالشخص البطل إنما هو إنسان يتصرف كبقية البشر[١٤] كما أن الفرد البطل - في رأى هيجل - من عظماء التاريخ ليس من الحمق بحيث ينغمس فى رغبات مختلفة يشتت بها اهتماماته لأنه مكرس لهدف واحد بغض النظر عن أي اعتبار آخر، بل إنه من الممكن أن ينظر هؤلاء الرجال إلى الاهتمامات العظيمة بل المقدسة أحيانا بغير اكتراث[١٥] وكل ذلك من أجل تحقيق الأهداف الطموحة والأفعال الخالدة التي يسعون إلى تحقيقها.

أما القول بأن أولئك الأبطال إنما يفعلون ما يفعلون لتحقيق طموحاتهم الذاتية فقط، فهذا ما يرى فيه هيجل عدم فهم لأساس الفعل الإنسانى فى التاريخ؛ حيث إنه يعتقد - بوجه عام - أن كل فعل بشرى إنما هو فعل موجه بإرادة ورغبات صاحبه فلا بد من أن يكون وراء أى فعل رغبة واهتمام، بل إنه يرى أن الانفعالات والغايات الخاصة وإشباع الرغبات الأنانية هى أكبر منابع السلوك أثرا وتكمن قوتها فى أنها لا تعترف بالحدود والحواجز التى يفرضها عليها القانون والأخلاق[١٦].

إن هذه الرغبات الذاتية والاهتمامات والانفعالات الحقيقية

إنما هى التعبير الحقيقى عن الحرية الفردية، وهذه الحرية ضرورة من ضروريات صنع التاريخ الإنسانى إذ إن أول نظرة إلى التاريخ ـ فيمايقول هيجل ـ تقنعنا بأن أفعال الناس تصدر عن حاجاتهم وانفعالاتهم وطبائعهم ومذاهبهم الخاصة»[١٧].

وبالطبع فإن حديث هيجل هنا لا يعنى بالقطع أن فعل البطل فى التاريخ إنما هو فعل أنانى لتحقيق مجرد مصلحة أو غاية شخصية للبطل، وإنما هو حديث يعنى تقديره - بوجه عام - لشعور أى إنسان بحريته وبقدرته على الفعل الذى يحقق من خلاله رغباته ومصالحه، وإذا كان ذلك يصدق - بوجه عام - على أفعال البشر جميعا فهو يصدق كذلك على فعل الإنسان البطل فالبطولة فعل ينسب لصاحبه ويحقق طموحات شخصية لصاحبه، لكن السؤال هو : هل فى هذه الأفعال البطولية التحقيق للمصالح والرغبات الذاتية فقط؟!.

هنا يتضح موقف هيجل الحقيقى حيث إن البطل هنا لا يفعل حقيقة إلا ما كان ينبغى أن يفعله تحقيقا للإرادة الكلية للتاريخ. إن ثمة لحظة تتوافق فيها المصلحة والرغبة والطموح الذاتى للبطل مع الإمكانات الداخلية للأحداث التاريخية (الروح الكلية) وهو يساهم بفعله وبمجهوداته الذاتية فى تحقيق هذه الإمكانيات وإظهارها للوجود الفعلى، فثمة توافق إذن بين فعل هذا الفرد

البطل وبين الرغبة الكلية للشعب فى عصره، وهذا الفعل للبطل وتلك الرغبة الشعبية فى عصره إنما فيهما وبهما يتحقق التطور التاريخى المنشود والذى تتجه الروح الكلية فى التاريخ لتحقيقه وكأنه يحتاج فقط لمن يحول هذا التوجه الداخلى إلى واقع حى يعيشه هذا الفرد البطل مع من يساعدونه ويطمحون إلى الحياة معه فيه.

ثانيا: الشعب (الجماعة) هو صانع التاريخ:

على النقيض من النظرية القائلة بأن الفرد البطل هو صانع التاريخ، فإن الغالبية من فلاسفة التاريخ المعاصرين يرون أن إنجازات الشعوب والجماعة البشرية هى صانعة التقدم فى التاريخ. وبالطبع فإن شيوع هذه النظرية أو تلك إنما يتوقف على نمط النظام الاجتماعى والسياسى السائد فى أى مجتمع، فإذا كان النظام الاجتماعى قائما على التضامن الاجتماعى بين الأفراد تصبح العلاقات الاجتماعية بين أفراده أفقية ويأمن الناس فى ظل هذا النظام ويكونون أميل إلى النظرية القائلة بأن الجماعة هى صانعة التاريخ. وإذا كانت العلاقات السائدة بين الطبقات الاجتماعية فى المجتمع رأسية وهى كذلك فى معظم عصور التاريخ القديم والوسيط فإن المؤرخين وكذلك أفراد هذه

المجتمعات يميلون إلى الاعتقاد القائل بأن الفرد هو صانع التاريخ(١٨).

وعلى أى حال فإن معظم الحضارات الشرقية القديمة كانت أميل إلى الاعتقاد بدور البطل الحاسم فى صنع التاريخ، فهكذا كان يرى المصريون فى ملكهم الإله، وهكذا كان يرى أقرانهم من أهل الحضارات الشرقية القديمة والهند وفارس وبابل فى ملوكهم، وانتقلت هذه الروح المحبة لصنع البطولة فى الحكام والقادة العسكريين إلى الحضارة اليونانية التى قدمت لنا صورا عديدة للإيمان بدور البطل بلغت حد التقديس والعبادة والتأليه للأبطال.

(أ) الحضارة الاسلامية أساس التحول:

أما التحول الحقيقى فى هذه النظرة فكان فى العصر الإسلامى الذى كان الدين الإسلامى دافعا للمؤمنين به إلى الحد من هذه النظرة التى تقدس البطل وتؤمن بالبطولة الفردية وكان لهذا التحول أسبابه الكامنة فى النصوص الدينية ذاتها، إذ تعلم المسلمون من القصص القرآنى أن الدين لا السياسة هو مدار التاريخ وأن الهدف من هذا القص هو الموعظة والاعتبار، كما تعلموا كذلك من رواية الأحاديث النبوية الطريقة الصحيحة فى

التـأريخ عن طريق التـدقيق فى الرواية والإسناد وليس أدل على هذه النظرة التى تنظر إلى التاريخ على أنه فعل جماعى من أن المسلمين لم ينظروا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) باعتباره قائدا سياسيا عظيما أو قائدا عسكريا ملهما بقدر ما نظروا إليـه على أنه رسول مكلف بنقل الرسـالة الإلهـية إليـهم، ومن ثم فقد أرخوا له كرسول وليس كقائد سياسى أو عسكرى(١٩).

كما أن الإجماع قد عد المصدر الثالث للتشريع فى الإسلام إلى جانب القرآن والسنة النبوية وفقا لقول الرسول نفسه : «لا تجتمع أمتى على ضلالة» وكان هذا مما حفز المؤرخين المسلمين إلى أن يهتـموا بالتـأريخ لفعل الجماعة المسلمـة ككل وليس لأى من أفرادهـا مهمـا علا شـأنه وكثرت إنجازاته؛ لدرجة أن الخلفاء المسلمين أنفسـهم قـد فشلوا فى أن يجـعلوا تصـورات المؤرخين والعلمـاء فـى شتـى فروع المعرفة خـاضـعة لإراداتـهم، أو متـأثرة بأفكارهـم. لقـد تجلت هذه النظرة الحـضـارية للتـاريخ عند المؤرخين المسلمين فى مؤلفـاتهم التى حملت فى معظمها عناوين دالة على ذلك، فـهناك طبقـات الفقـهاء للشيـرازى ثم الشـافعـية للسبكى والحنابلة لأبى يعلى، وهناك طبقـات المتكلمين (المعتزلة لابن المرتضى، الأشـاعـرة لابن عسـاكـر) وطبـقـات الصـوفـيـة للسلمى وطبـقات الشعـراء لابن سلام، وطبقات الأطباء لابن أبى

أصيبعة وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى[٢٠].

وهكذا لم يتخذ المسلمون السياسة محورا للتأريخ ، بل اتخذوا الدين الأساس ونقطة الانطلاق ومن ثم انطلقوا إلى التأريخ لأعمال الأمة ممثلة فى علمائها ومفكريها فهم لم يسجلوا أعمال الملوك بقدر ما سجلوا فكر العلماء والفقهاء والمحدثين والصوفية والشعراء. ولم يتصور المسلمون ومؤرخوهم أن الأمة مجموعة أصفار لا قيمة لها إلا بالواحد وهو الحاكم كما هو الحال فى التصور القائم على أن التاريخ من صنع أفراد، وإنما تصوروا الحضارة الإسلامية قائمة بفكر علمائها لا بسيرة خلفائها. كان تصور المؤرخين المسلمين أن الفعالية فى الحضارة الإسلامية للأمة جميعا لا للفرد[٢١].

(ب) فولتير يؤكد هذا التحول نحو التأريخ للحضارة:

ويبدو أن هذه الرؤية التى تنسب الإنجاز الحقيقى فى التاريخ للأمة أو للشعب ممثلا فى علمائه ومفكريه قد انتقلت من مؤرخى الحضارة الإسلامية إلى الأوربيين فى عصر التنوير، ففى هذا العصر الذى تمثل فى القرن الثامن عشر فى أوروبا أوقف ڤولتير الكثير من كتاباته على نقد تلك الرؤية التى تنسب الفعل التاريخى لأبطال الحروب والزعماء السياسيين، ففى الرسالة

الثانية عشرة من رسائله الفلسفية يتحدث عن ذلك النقاش الذى دار بين المجتمعين حول أى الرجال أعظم من الآخر، قيصر أو الإسكندر أو تيمورلنك أو كرمويل..إلخ؟! فأجاب بعضهم بقوله: إن إسحاق نيوتن هو أعظمهم بلاريب[٢٢] وقد أيد ڤولتير هذا القول الأخير مؤكدا أن العظمة الحقيقية إذا كانت تقوم على تلقى عبقرية جبارة من السماء وعلى الانتفاع بهذه العبقرية لتنوير الإنسان نفسه وتنوير الآخرين، فإن رجلا مثل السيد نيوتن الذى لا يكاد يظهر مثله فى عشرة قرون يكون العظيم ولأن هؤلاء السياسيين والفاتحين الذين لا يخلو منهم قرن ليسوا غير أشرار بالحقيقة فترانا ملزمين بإجلال ذلك الذى يسيطر على النفوس بقوة الحقيقة لا أولئك الذين يصنعون عبيدا بالإكراه والقهر، وترانا ملزمين بتقديم احترامنا إلى ذلك الذى يعرف الكون لا أولئك الذين يشوهونه[٢٣].

إن ڤولتير ينظر هنا إلى التاريخ فلا يرى فيه حقيقة إلا إنجازات العلماء والمفكرين وهو يثمن عاليا إنجازات رجال مثل نيوتن وبيكون ولوك ويتحدث عن هذه الإنجازات باعتبارها هى صانعة التقدم فى التاريخ البشرى وليس انتصارات العسكريين أو قرارات السياسيين، فمن المعروف أن ما يبنيه العلماء والمفكرون ومن يتابعونهم ويستخدمون فكرهم واختراعاتهم من

obeikandl.com

البشر فى قرون يهدمه هؤلاء الساسة بقراراتهم الرعناء وهؤلاء القادة العسكريون بأوامرهم الشريرة في ساعات !!.

إن العبقرية الحقيقية هى التى وُهِبَها هؤلاء العلماء الأفذاذ الذين لا يكاد يظهر الواحد منهم إلا كل عشرة قرون - على حد تعبير ڤولتير - بينما - كما يقول هو أيضا - لا يخلو أى قرن من القرون التى مرت على البشرية دون وجود هؤلاء الساسة والقادة، وبينما يكون فعل الأوائل بحكم عبقريتهم ومواهبهم الفذة هو الإبداع واكتشاف حقائق الوجود وأسرار الكون ومن ثم صنع التقدم البشرى و يكون فعل الآخرين من الساسة والقادة العسكريين هو الشر بعينه لأنهم يركزون فى أفعالهم على اصطياد الأرقاء والتحكم فى البشر وقهر إرادتهم.

وقد أثرت هذه الآراء لڤولتير فى فلاسفة عصر التنوير وعبر عنها معظم هؤلاء الفلاسفة ، فقد حفل كتاب روح القوانين لمونتسكيو بالآراء المؤيدة لذلك، إذ نجده يتحدث - على سبيل المثال - عن نظم الحكم المختلفة وكيف يتحدد وجودها تبعا لعوامل جغرافية أو مادية أو اجتماعية وثقافية ومع أنه يولى فى كتابة أهمية خاصة للعوامل الجغرافية ويبين أثرها على شكل المجتمع وشكل حكومته، فإنه يشير إلى أن هذه العوامل الجغرافية إن ساد تأثيرها على العوامل الثقافية أو الاجتماعية

obeikandl.com

فإن هذا يعنى جمود المجتمع وضعف مقدرته على التطور نظرا لثبات العامل الجغرافى إن قيس بالعامل الثقافى[٢٤] ومن ثم فإن مونتسكيو يرى أن العوامل الثقافية هى بحق القادرة على أن تدفع بالتاريخ البشرى إلى الأمام ،وصانعو الحدث الثقافى سواء أكان علما أو فلسفة أو أية معرفة جديدة فى أى اتجاه هم صانعو التاريخ والتقدم.

(هـ) إشفيتسر يدعم هذا التوجه الحضارى:

وقد تدعم هذا التوجه نحو الاهتمام بالإنجازات الحضارية العامة للشعوب والأفراد فى أوروبا وخاصة لدى فلاسفة الحضارة المعاصرين ومنهم - بلا شك - ألبرت إشفيتسر صاحب كتاب فلسفة الحضارة الذى أكد بحسم على أن كل تقدم إنسانى إنما يتوقف على التقدم فى نظريته فى الكون، وعلى العكس نجد أن كل انحلال سببه انحلال مماثل فى نظريته فى الكون، وأن افتقارنا إلى حضارة حقيقية مرجعه إلى افتقارنا إلى نظرية فى الكون[٢٥].

إن إشفيتسر فى تلك العبارة السابقة ينتقد حقيقة الحضارة الغربية؛ لأنها لم تعد تمتلك نظرية واضحة عن الكون، تتسم بالأخلاقية وهو من خلال هذا النقد يؤكد هذه الرواية التى ترى

obeikandl.com

أن الأفراد والشعوب هى صانعة الحضارة والتاريخ بشرط أن يكون لدى هؤلاء الأفراد وهذه الشعوب الأساس الأخلاقى الدافع للإبداع، فالأعمال المبتكرة والفنية والعقلية والمادية لا تكشف عن آثارها ـ فى رأيه ـ إلا إذا استندت الحضارة فى بقائها ونمائها إلى استعداد نفسى يكون أخلاقيا حقا، ذلك أن الإنسان لن تكون له قيمة حقيقية بوصفه شخصية إنسانية إلا من خلال كفاحه ليكون ذا خلق وخلال حسنة(٢٦).

إن اشفيتسر يرى أن مختلف العلاقات فى المجتمع البشرى تكونت تحت تأثير المعتقدات الأخلاقية على نحو يسمح للأفراد والشعوب أن تنمو وتتطور بطريقة مثالية. وأنه إذا لم يوجد الأساس الأخلاقى تداعت الحضارة حتى لو كانت العوامل العقلية والخلاقة أيا كانت قوة طبيعتها تعمل عملها فى اتجاهات أخرى، وهو يعيب على معاصريه قصور تفكيرهم فى فهم حقيقة الحضارة ويطالبهم بالعودة إلى النظرة الأخلاقية التى سادت فى القرن الثامن عشر (عصر التنوير)(٢٧).

إنه يرى بكل بساطة «أن الحضارة معناها بذل المجهود بوصفنا كائنات إنسانية من أجل تكميل النوع الإنسانى وتحقيق التقدم من أى نوع كان فى أحوال الإنسانية وأحوال العالم الواقعى وهو يرى أن هذا الموقف العقلى يتضمن استعدادا

مزدوجا. إنه يجب أولا أن نكون متأهبين للعمل إيجابيا فى العالم والحياة ويجب ثانيا أن نكون أخلاقيين ولن نستطيع القيام بمثل هذا العمل بحيث ينتج نتائج ذات قيمة حقيقية إلا إذا كنا قادرين على أن نهب العالم والحياة معنى حقيقيا.. إن الحضارة تنشأ حينما يستلهم الناس عزما واضحا صادقا على بلوغ التقدم ويكرسون أنفسهم، تبعا لذلك، لخدمة الحياة وخدمة العالم، وفى الأخلاق وحدها نجد الدافع القوى إلى مثل هذا العمل فنتجاوز حدود وجودنا(٢٨).

إن هذه الرؤية المؤكدة على دور الأخلاق فى بناء الحضارة الإنسانية إنما تعكس إيمان صاحبها العميق بأن الفرد وحده لا يصنع شيئا وأنه حتى الجماعة ككل إن لم تتحلَّ بالأخلاق الاجتماعية الفاضلة وبإيمان عميق بضرورة الفعل الإيجابى فى الحياة لصالح الآخرين فلن يتحقق شىء ذو قيمة فى العالم.

هوامش الفصل الثانى

(١) توماس كارلايل: الأبطال ، الترجمة العربية لمحمد السباعى ، نشرة كتاب «الهلال» العدد ٣٢٦ فبراير ١٩٧٨م، ص ٧

(٢) نفسه، ص ٨

(٣) راجع نص المحاضرة الثانية من كتاب كارلايل السابق فى نفس الترجمة العربية ، ص ٥٧ ـ ص ٩٧

(٤) سدنى هوك: البطل فى التاريخ، ترجمة مروان الجابرى، المؤسسات الأهلية للطباعة والنشر بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٩م، ص ١٣ ـ ١٤

(٥) نفسه، ص ٢٠

(٦) نفسه، ص ٢١ ـ ٢٢

(٧) نفسه، ص ٢٢

(٨) نفسه

(٩) نفسه، ص ٢٧

(١٠) نفسه، ص ١٥٤

(١١) نفسه، ص ١٥٥

(١٢) هيجل: محاضرات فى فلسفة التاريخ ـ (العقل فى التاريخ) ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام، دارالثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٤م ، ص ١٠١ ـ ١٠٢

(١٣) نفسه، ص ١٠٢ ـ ١٠٣

(١٤) انظر، نفس المصدر السابق ، ص ١٠٤ ـ ١٠٥

(١٥) نفسه، ص ١٠٦

(١٧) نفسه

(١٨) انظر: د.أحمد صبحى: فى فلسفة التاريخ، مؤسسة الثقافة الجامعية بالإسكندرية ١٩٧٥م ص ٧٥

(١٩) نفسه، ص ٧٦ ـ ٧٧

(٢٠) نفسه، ٧٨ ـ ٧٩

(٢١) نفسه، ص ٨١

obeikandi.com

(٢٢) ڤولتير: الرسائل الفلسفية، الترجمة العربية لعادل زعيتر، دارالمعارف بمصر، القاهرة ١٩٥٩م، ص ٥٩

(٢٣) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة

(٢٤) انظر: د. أحمد صبحي ، نفس المرجع السابق ، ص ٨٦

(٢٥) ألبرت إشفيتسر : فلسفة الحضارة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ومراجعة د. زكى نجيب محمود، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٥

(٢٦) نفسه، ص ٤

(٢٧) نفسه

(٢٨) نفسه، ص ٥ ـ ٦ وانظر كذلك فى نفس المصدر ص ٤٠٣ ـ ٤٠٥

obeikandi.com